تشرين الأول ؟؟؟!

انقطعت عن مطالعة الصحف الفرنسية من سنين وكنت مواظباً على قراءة جريدة (الطان) ومجلة (له زنال) واليوم حدثتني نفسي بالرجوع إلى مطالعة طائفة من هذه الصحف ، فأوصيت بأن يرسلوا إليَّ أنواعاً منها ، ففي أسبوع تأتيني (الماتان) وفي أسبوع تأتيني (الجورنال) بين يدي وأنا أكتب هذا المقال الوجيز جريدة «الجورنال» لا أدري مبلغ منزلها في باريز ولكني أعرف أن (الجورنال) جريدة لها منزلتها على كل حال فيها أخبار العالم وفيها أخبار فرنسة، وفيها رواية، وفيها قصة وفيها أشياء كثيرة .

أهتم قبل كل شيء بالمقال الأول وقد وجدت أن هذا المقال عام لا ارتباط له بسياسة فرنسة أو بوضع من أوضاعها فالعين تأخذ فيه عناوين شتى : حسن باريز أو مائة بالساعة أو غيرهما من العناوين ولي ميل خاص إلى هذه المقالات لأني أجد فيها لذة وفائدة .

من هذه المقالات مقال عنوانه : زينة الحياة - عنصر شؤم أو فأل، قرأته مرة ومرتين وثلاث مرات لغرابته أتدري أيها القارئ الكريم عن أي شيء يبحث صاحبه، إنه يبحث عن الشؤم، وخاصة شؤم المكان وبعد أن قرأته ثلاث مرات قلت في نفسي : لو

كتب واحد منا مقالا في القبس موضوعه شؤم الشهر، لقال له الأستاذ صاحب القبس أهذه بضاعتك ؟

نعم يا سيدي هذه بضاعتي سواء أرضيت عنها أم لم ترض فإذا كانت جريدة مثل الجورنال تسمح لكاتب من كتّابها بأن يبحث عن شؤم الدار فلماذا لا تسمح لي في جريدتك بان ابحث عن شؤم الشهر

وعلى هذا آثرت أن يكون عنوان مقالي : تشرين الأول ولكن المصيبة أني بعد أن اخترت هذا العنوان جمدت القريحة فلم أعرف كيف أبدأ المقال ولا كيف افرغ منه فرأيت بعد هذا الجمود أن أرجع إلى الأستاذ (اندره موروا) صاحب مقال زينة الدنيا - عنصر شؤم أو فأل فأستعين به على هذه الورطة.

إنه يرى أن بعض الأمكنة ظاهرها السعادة. وبعضها ظاهرها الشقاوة وأخذ يضرب الأمثال، فعلى مقربة من بلده قصر في آخر الوادي نصفه خرب، يجري تحت شبابيكه نهر أسود، على جدران هذا القصر آثار النار، فهو يقول: لقد تعاقبت البلايا على هذا القصر .

ثم يشرع في ضروب من التعليل فيها شيء من الفلسفة، لماذا نرى الشؤم في بعض الدور مثلاً، يقول صاحبنا : الإفراط في العزلة والأماكن التي يصعب الوصول إليها، كل هذا لا يناسب كثيراً من الناس إننا نفتقر إلى الحرارة وإلى الصوت وإلى أشراف أمثالنا علينا، وذكر أن بعض الرسل في القرن التاسع عشر كانوا يذهبون إلى

إفريقية على سبيل التبشير وحالة عقولهم لا بأس بها، فلا يلبثون أن يصبحوا أهل قسوة وشدة لبعدهم عن الحضارة، فلو كان صاحبنا إمرأة على ما قال لكان يحذر الرجل الذي يريد أن يبعد به عن البشر

وتعليل آخر وهو أن ماضي الدار له بعض التأثير في سكانها ففي انكلترة مثلاً يؤمنون بأشباح الموتى، والناس فيها يحدثونك في شيء من الجد عن السيدة التي ماتت من ألف سنة وهي لا تنتاب الغرفة التي أعدوها لنومك في هذه الليلة .

إن صاحبنا لم ير شبحاً بعينه ولا لمسه بيده ولكنه يؤمن بذكريات الدار، فبعض الدور شؤم كلها، وفي كل مدينة، وفي كل قرية طائفة من هذه الدور.

وتعليل آخر أيضاً وهو وجهات الدار فأهل الصين يهتمون بجهات الدار فالدار التي تستقبل الشمس إنما هي دار صحة وانشراح

والخلاصة صاحبنا يحذرنا من بعض الأماكن .

كنت أعتقد أن الشؤم عندنا وحدنا أو على الوجه الأصح ما كنت أعتقد أنهم يبحثون عن الشؤم في المقال الأول في جريدة مثل «الجورنال» فإذا كانوا يبحثون أشباه هذه المباحث في صحفهم فلماذا لا نبحثها في صحفنا لماذا لا نتكلم على الشؤم مثلا وسواء أكنا نبحث عن شؤم الدار، أم عن شؤم المرأة، أم عن شؤم الدّابة، كل هذا واحد، إلا أني اخترت البحث عن شؤم الشهر، وخاصة

شهر تشرين الأول، وتجنبت التعليل في بحثي .

كثير من نسائنا يعتقدن أن الإنسان تسقط ورقة أجله في تشرين الأول فمن سقطت ورقته مات في خلال السنة ومن ثبتت ورقته على شجرتها عاش، وأنا لا أرى غضاضة على نسائنا في هذا الإعتقاد، فإذا كانوا في بلاد مثل انكلترة يعتقدون أن بعض الدور مسكونة على تعبيرنا العامي أي فيها أشباح موتى، أو فيها جن، فما يضير نساءنا أن يعتقدن أن الإنسان تسقط ورقة أجله في تشرين الأول

أما أنا فإني أشاركهن في هذا الإعتقاد وأخالفهن في نوعه وعلى كل حال شؤمي وشؤمهن واحد قد لا تسقط ورقة الأجل في تشرين الأول ولكن سيسقط شيء آخر ولا ريب !.. فقد يكون إما أجل سياسة، وإما أجل وزارة، وأما شيئاً آخر من هذه البضاعة. وهذا الشيء الذي سيسقط لا أستطيع تسميته بعينه غير أنك أيها القارئ الكريم عرفته وأغنيتني عن ذكره

فإن يكن الشؤم في الدار فما يمنعه عن أن يكون في الشهر أيضاً وخاصة في تشرين الأول الآتي وهذا هو السر في خفقان قلوب (جماعة) منا عند ذكر تشرين الأول.

بلودان

المقتبس ١٩٣٤

في سبيل التحصيل

وافق مجلس الوزراء على ما اقترحته وزارة المعارف، من توجيه عشرة طلاب إلى فرنسا، يقتبسون فيها من العلوم والفنون، ما لم يتهيأ لهم اقتباسه في هذه الأصقاع، ومن جملة الأمور التي سيأخذون أنفسهم باتقانها الهندسة الزراعية وتعبيد الطرق وإستنباط المياه والإرواء بحسب الأصول المستحدثة ودرس التربية والتعليم والإقتصاد السياسي وأشباه ذلك من العلوم التي تجلب لهذه البلاد المنافع والفوائد .

هذا أفضل ما نتذرع به إلى تقويم اعوجاجنا وتعزيز جانبنا فقد بلغنا من صغر الشأن بسبب جاهليتنا الجهلاء كل مبلغ ولم نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم إلا لفساد معارفنا وقلة تحصيلنا ولو كتب لنا من صحيح العلم وكامل التحصيل ما كتب لغيرنا من الأمم ذات المدينة الصافية الرائعة لما نازعنا منازع ولا زاحمنا مزاحم وما أخفقنا في جميع مطالبنا إلا لضعف نظرنا في القضايا الإجتماعية والسياسية حتى سدت في وجوهنا كل المسالك وضربت علينا الأرض بالإسداد ولم يبق لنا وسيلة إلى النجاح في الآتي إلا أمر واحد وهو اقتباس العلوم و التوفر على العمل.

لم تدرك مصر ما أدركته من المنزلة الرفيعة إلا بعد أن أخذ رجالها من العلوم بالحظ الأوفر وضربوا فيها بالسهم الفائز ولو أهملوا النظر في العلوم والفنون لما أتاهم استقلالهم منفاداً لهم يجرر أذياله ولا كان لهم من العبودية مخلص

يليق بالحكومة أن تشترط على الطلاب الذين ستوفدهم إلى فرنسا أن يكونوا من أصحاب الأخلاق الطيبة والإجتهاد الحسن حتى تكون هممهم مصروفه إلى التحصيل، فان كثيراً من الذين شخصوا من هذه البلاد إلى أوروبا لأخذ العلوم والفنون قد زهدوا في التحصيل وذهبوا في اللهو والطرب كل مذهب فعادوا إلى هذه الربوع ولم يرسخ في صدر أحد منهم علم ولا أفاد أمته شيئاً .

إلا أن مراعاة الأخلاق الطيبة لا يكفي وحده فإن من الضروري أن لا يدخل في جملة الطلاب إلا أصحاب الفاقة والحاجة لأن الموسرين وذوي الجاه يجدون سبيلاً إلى تعليم أبنائهم في أوروبا دون أن تنفق الحكومة عليهم شيئاً من بيت المال، وأما أصحاب الفاقة فإن منهم من يتحسر على طائفة من المال يقتبس به علماً فلا يكاد يظفر به فأولئك هم الذين ينبغي للحكومة أن تهتم بتوجيههم إلى فرنسا دون غيرهم ممن اجتمعت لهم أسباب القدرة والغنى ليس من الرأي أن تقتصر الأمة على عشرة طلاب يذهبون في كل سنة إلى أوروبا فإن من الواجب على كل رجل قد أصاب حظه من فضل المال ونضارة العيش أن يبعث أبناءه إلى أوروبا للدرس والتحصيل

بدلاً من أن يهمل شأن تربيتهم ويعودهم البطالة والاتكال على ما يخلفهُ لهم من الكنوز فإن المال قد يفنى ولكن العلم الذي يرسخ في الصدور كنز لا يفنى مع الإنفاق وذخيرة لا يضرب لها بالإملاق فهو زينة وجاه في هذه الحياة الدنيا وإن ديناراً يصرفه المرء في سبيل العلم خير من مائة دينار ينفقها على اللهو والطرب .

وتلخيص المقال أن توجيه الطلاب إلى أوروبا ضرب من الحكمة والصواب فإذا كثرت عندنا الطبقات المستنيرة واستفاض العلم في آفاقنا صلحت حالاتنا وحسنت أوضاعنا وكان مستقبلنا خير مغبة من حاضرنا.

المقتبس ١٩٢٠

أمثولة للوطنيين في سورية

عن زملائهم الوفديين في مصر حديث في دار الدكتور طه حسين

«وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان، وأسلف الشكر قبل الإحسان، وقد كنت رأيت حاكماً يحجر على يتيم أو معتوه في وفره، ولم أر أميراً يحجر على كاتب في كتابته، أو على شاعر في شعره»

هذا ما قاله أبو بكر الخوارزمي في إحدى رسائله من ألف سنة بوجه التقريب وفي هذا القول نزعة إلى حرية الكلام متسعة الأفياء، فإذا كان الكتّاب يضجرون من ضيق الحرية في القرن الرابع فنحن من ضيقها في هذا القرن أضجر، فكأن ألف سنة تقضت لم تزحزح عن مذاهب الفكر والشعور شدة الضغط مقدار شعرة، فقد أصبحنا نفلي الكلام تفليه قبل إرساله خوفاً من محنة جديدة تسد علينا مذاهب هذا الكلام، فلا نجد بعد سدها إلا تصوير الباطل في صورة الحق، وصب الحق في قالب الباطل من أجل هذه المعاسرة في حرية الكلام أنتقل من أفق ضيق الظلال إلى أفق ظلاله أشد انبساطاً، وأعني به مصر .

أذكر أني دعيت في الشتاء الماضي إلى دار الدكتور طه حسين في الزمالك، وكنا عشرة، أربعة من المجمع اللغوي في مصر، واثنان من كلية الآداب، والأستاذ محمد توفيق دياب صاحب (الجهاد) واثنان لا تحضرني أسماؤهما.

للدكتور طه حسين في أحاديثه أسلوب يختلف الاختلاف كله عن أسلوبه في الكتابة، فعلى قدر تبسطه في الإنشاء تجد إيجازه في الحديث، فهو يزن كل لفظة من ألفاظه، ويقيس كل كلمة من كلامه وله نغمة في حديثه تهز الأذن، وتأخذ بالقلب إنها لنغمة موسيقية، لكنها ملئت رجولية فالمصغي إلى حديثه لا يستطيع الانصراف عنه.

كان الحديث شجوناً، والذي أحفظه من هذه الأحاديث طراز مداعبات أهلها، فالدكتور طه حسين ظاهره جد لا هزل فيه، والأستاذ محمد توفيق دياب ظاهرة هزل لا جدل فيه .

قال الأستاذ محمد توفيق دياب للدكتور طه حسين : يا دكتور ! لقد اهتديت في هذا اليوم إلى لفظتين ما كنت أظن أنهما من فصيح الكلام وهما : الأهأهة بمعنى القهقهة والهبالة وإني عازم على استعمالهما في كلامي من اليوم .

فقال له الدكتور طه حسين : يا توفيق نأخذ الأهأهة ونترك لك الهبالة ! فضحك القوم وكان أضحكهم الأستاذ محمد توفيق دياب.

ثم أخذ أهل المجلس في فنون من أحاديث السياسة ولكنها

أحاديث هادئة لا ضجة فيها والحضور على مذهب الوفديين وبعضهم من غلاتهم كان موضوع هذه الأحاديث زيارة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا لسراي عابدين ولقصر المندوب السامي، فقد كان جلالة الملك مريضاً فذهب النحاس باشا إلى سراي عابدين ووضع بطاقته وكان المندوب السامي غائباً عن مصر فزاره النحاس باشا بعد عودته ووضع بطاقته فكان الموضوع هذه الزيارات إني لا أزال أرى على وجه الدكتور طه حسين أثر التهلل من هذه الزيارات فكان يشير إليها في كلامه ووجهه جذل وقلبه منبسط وكان إخوانه يشاركونه في هذا الفرح وقد جرى ذكر الصحف التي لمحت إلى هذه الزيارات فقال الدكتور طه حسين : إني قرأت خبرها في (المقطم) و(الأهرام) ووجهه يدل أوضح دلالة على إرتياحه إلى نشر الخبر في أمثال المقطم والأهرام كنت في هذه الأحاديث ساكتاً لبعدي عن دقائقها وأسرارها ولكني كنت شديد الإصغاء إلى أهلها لأنني رأيت فيها آفاقاً حديثة في السياسة فما كنت أعرف أن النحاس باشا يزور سراي عابدين أو قصر المندوب السامي وأما الذي كنت أعرفه إنه كان في عزلة عنهما متشدداً في عزلته صلباً في هذا التشدد .

هذه الآفاق الحديثة في السياسة كانت ملفت نظري ولكني لم أجرأ على السؤال عن أسبابها فان جلسة واحدة لا تعطي صاحبها حق التوسع في السؤالات والجوابات فكتمت الأمر في نفسي ولما

خرجت من دار الدكتور طه حسين خرجت ورفيق لي من أهل مصر واقف على كثير من أحوال مصر فقد كان يروي لي من أخبار سراي عابدين ومن أسرار الايسطوقراطيين ما يجهله كثيرون في مصر .

سألته عن هذه الملاينة التي وجدت آثارها في أحاديث الدكتور طه حسين وعن اهتمامه بزيارة النحاس باشا لسراي عادين ولقصر المندوب السامي فبسط لي الأسباب كلها وقال لي في جملة ما قال : كان رجال الوفد يقاطعون السراي وقصر المندوب ولكنهم أدركوا خطأهم في هذه المقاطعة ورجعوا عن هذا الخطأ فقد وجدوا انهم لا يزدادون وحشة من السراي ومن القصر إلا ازداد خصمائهم استئناساً بهما وفي بعدهم عن السراي والقصر وفي قرب خصمائهم منهما شر ر يصيبهم وحدهم ولكنه يصيب مصر عامة في مجامع أوضاعها ووزارة إسماعيل صدقي باشا انطق دليل على هذا الشر فليس من حسن السياسة في شيء مقاطعتهم لسراي عابدين ولقصر المندوب وهما المرجعان اللذان يمثلان الفريق الأول في حل القضية المصرية والوفديون ومصر يمثلون الفريق الثاني فيها فمن المصلحة أن يكونوا على احسن حال مع أهل هذين المنزلين ولا تغير هذه المصلحة سياستهم في شيء إن غايتهم شريفة وإن برنامج حزبهم واضح ولقد ركبوا إلى هذه الغاية مراكب أدركوا الآن خشونتها فغيروا مسالكهم وحافظوا على غايتهم فقد انقلبت شدتهم لينا

وعزلتهم صلة على هذه الصورة سدوا الطريق على أهل الكيد والدس إذ لا شيء يقتل خصماءهم إلا لينهم في سياستهم مع حرصهم على برنامجهم، فكلما اشتدت صلتهم بسراي عابدين وبقصر المندوب السامي دنت آجال خصمائهم، وفي دنو هذه الآجال وفي اشتداد هذه الصلة خير لا يصيب الوفديين وحدهم ولكنه يصيب مصر عامة

أضف إلى هذا كله أنهم أصبحوا لا يبالون باعتراض المعترضين على سياستهم الحكيمة فإنهم يهزأون بكل تشدق في هذا الباب

هذا آخر ما بقي في الذهن من حديث " الزمالك " أدونه كما سمعته لعل فيه عبرة للوطنيين فإن تشرين الأول كان يهجم !

٦ آب ١٩٣٤

بلودان

المصطلحات الحديثة

وقع نظري في المقتبس الأغر على مقال للأستاذ المغربي أشار فيه إلى ما يستعمله بعض الكتاب من الكلم التي اصطلح عليها الذوق مع أنها مجانبة لأساليب العرب في كتاباتهم ورغب إليَّ الذين يعنيهم شأن اللغة أن يبدوا آراءهم في هذه المسألة فأقول على سبيل الإيجاز.

١- من الذي وضع المصطلحات التي ذكرها الأستاذ؟

٢- هل من حاجة إلى وضعها؟

٣- أفلا نجد سبيلاً إلى استبدالها.

إن المصطلحات التي أشار إليها الأستاذ في كلامه قد أنشأتها طائفة من الناس لم يرسخوا في اللغة؛ ولا أحاط علمهم بمصادرها وموارداها؛ فربما خرجوا فيها عن قوانين الفصاحة ولم يراعوا قواعد اللغة و أصول النحو فلا يوافقهم عليها علماء اللغة وبلغاء الكتّاب لأنهم ربما نقبوا في معاجم اللغة وكتب الأدب عن كلم تقوم مقام تلك المصطلحات وظفروا بها بعد المبالغة في البحث والتنقيب فاحلوا ما اهتدوا إليه من الكلم العربية محل المصطلحات الدخيلة واستغنوا عن الرطانة والعجمة.

ولو واطأ كاتب من الكتّاب أولئك الذين وضعوا هذه المصطلحات على استخدامها في كلامه لتصدى له عالم من علماء اللغة أو كاتب من بلغاء الكتاب وحط من قدر أسلوبه وزعم أنه لا يشابه أساليب العرب المألوفة فمن يناضل يومئذ عن هذا الكاتب وما هي الحجج التي يدلي بها في مدافعته؟

كان العرب في قديم الدهر يضعون أسماء لمسميات مستحدثة ولكنهم كانوا يجرون في ذلك على أصول الفصاحة وقوانين اللغة فلا يضعون الكلمة إلا بعد أن يتأنقوا في صقلها ويتحقق عندهم أن اللغة ليس في مفرداتها ما يسد مسد الكلمة الموضوعة، ينبغي للذين يصطلحون على كلام طريف أن يلاحظوا مقدار الحاجة إليه فلا يجوز لهم أن يضموا كلمة إلا إذا اشتدت الحاجة إليها فإن اللغة لا تكون غنية بكثرة مفرداتها وإنما غنى اللغة بأن يجد فيها أهلها ما يحتاجون إليه من الكلام لتصوير ما يهجس في صدورهم ويختلج في أفئدتهم فإن عندنا مئات من الأسماء للسيف ومثلها للداهية وأشباههما فهل غنيت لغتنا بذلك؟

إن الإلتجاء إلى المصطلحات الحديثة دون الحاجة إليها قد يكون في الأعم من الأحوال مجلبة لفوضى لا ينتظم معها للغة أمر ولا يستقيم لها شأن، ثم تتعاقب الأيام على الاستكثار منها فيذهب رونق اللغة ويضيع الفصيح من كلامها فيأتي علينا حين من الدهر نستهجن فيه كلام البلغاء من العرب ونستقبح أساليب الفصحاء منهم فتفسد اللغة يومئذ وبفساد اللغة فساد الأمة.

من الواجب علينا قبل أن نعمد إلى المصطلحات غير المألوفة أن نبحث في معاجم اللغة وكتب الأدب عما يقوم مقامها فإذا اهتدينا إلى ما يحل محلها زهدنا في تلك المصطلحات ورغبنا عنها، وإذا لم نهتد إلى ما يفي بمقاصدنا فلا مندوحه لنا حينئذ عن استعمالها في كلامنا على أن نراعي فيها أصول الفصاحة وقوانين اللغة ونأخذ آراء من يليق بنا استشارتهم في هذا الأمر.

إن القصور عن تصوير ما استحدث من المعاني والعلوم منسوب في الأغلب من الأحوال إلى الكتّاب والمعربين إلى اللغة نفسها فلو كان الذين يتفرغون لصناعة التأليف والتعريب من الراسخين في اللغة الواقفين على دقائقها وشواردها لما عجزوا عن الإفصاح عما يزدحم في حواشي صدورهم من طرائف المعاني فلو وردوا الموارد لانبسطت لهم مصادرها ولو راموا البيان لتكاملت لهم أدواته.

هذا كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» عربه حافظ إبراهيم وخليل مطران ما ألم بهما عجز عن البيان ولا سئما ضيق اللغة على أن هذا العلم من مستحدثات العلوم التي لم يألفها كتّاب العرب في سالف الدهر اللهم إلا ابن خلدون فقد تعرض له في مقدمته إلا أن الأقتصاد قد انبسطت آفاقه ودخلت فيه أمور لم يأت ذكرها في مقدمة ابن خلدون.

وتلخيص المقال أن المصطلحات المستحدثة ينبغي أن تكون مطابقة لقوانين الفصاحة وعلم اللغة ولا يجوز استعمالها إلا إذا

تـأكد لنـا أننـا في أشـد الحاجـة إليهـا وإن اللغـة لا تغـني عنهـا شـيئاً؛ وأمـا إذا اسـتطعنا أن نقـول رجـال الحكومـة بـدلاً مـن هيئـة الحكومـة فـالزهد في هـذه المصطلحـات خير للغـة وأبقـى.

لسان العرب
١٩٢١/١/٩

ذكرى طريفة

سيدي ـ!

أراكم قد ملتم الى هذا الطراز واعني به طراز السؤالات والجوابات، وما هو بالنمط المستقبح فإنه يصور كثيراً من الآراء في قليل من الكلام وقارىء الصحف في هذا العصر لا ينبغي لوقته أن يضيع في التعمق والإستباط فيجب علينا أن نعرض عليه آراءنا في معارض من القول الوجيز هذه هي مهمة المجلات ؟؟

سألتموني عن أمور شتى منها : ما هي أحب ذكرى الي في حياتي الأدبية ؟

فها انا أجيبكم عنها على قدر ما يمليه علي الذهن دون شيء من المطمطة على ان تكون جواباتي أشبه شيء بالكلام الذي نتجاذب أطرافه عادة في مجالسنا فلا تكلفوني البحث والتنقيب فإذا كلفتموني شيئاً من ذلك خرجت أحاديثنا عن طبائعها وما ينبغي لها ان تظهر عليها آثار كلفة فلتكن هذه الأحاديث خواطر تخطر وهواجس تهجس، ولا بأس على هذه الخواطر والهواجس بأن تكون عجلية .

ما هي أحب ذكرى إليَّ ولم لا تقولون لي : ما هي أبغض ذكرى الي ؟ واذا أفضت في بيان هذه الذكرى الأليمة فأنتم الذين تحملون تبعاتها لأن المرء لا يستطيع أن يتكلم بكلام على نفسه من غير أن يضجر غيره بهذا الكلام فإذا أضجرت غيري فعليكم الغرم!

بيني وبين هذه الذكرى أربعة عشر عاماً وهو الزمن الذي جرأت فيه على إظهار شعري على صفحات الجرائد وكنت قبل ذلك مقيماً بيافا مدة سنتين أو ثلاث سنين ثم عدت الى وطني دمشق سنة ١٩١٦ هذا اذا صدقت الذاكرة وقد مات في أوائل عودتي الى دمشق تاجر من أشراف التجار فرثيته لصحبتنا وقد كانت تأكدت بيني وبين أخي الكريم الشاعر الكبير السيد خير الدين الزركلي صداقة نقية صافية لا تزبدها الأيام الا إحكاماً، كان سبب هذه الصداقة الوطني المخلص سعد الدين بك المؤيد الذي مات أشرف ميته فقد كنت قرأت لسعد الدين مرثيتي فحفظ منها أبياتاً لم يسعه إلا نقلها إلى خير الدين فلما سمعها خير الدين قال :

هذه أبيات عامرة وما ينبغي لي أن أجهل صاحبها ؟ فعرفني خير الدين وعرفته وكان أول عهدي بالشعر فأخذ مني القصيدة ودفعها الى صديقه الأستاذ إبراهيم حلمي العمر محرر جريدة " سورية " وطلب إليه أن ينشرها في جريدته لبى الأستاذ إبراهيم الطلب وصدر القصيدة بكلام طيب ولما مضى على القصيدة يوم أو يومان

كان خير الدين وإبراهيم حلمي واثنان لا أريد أن أذكرهما جالسين في أمسية من الأماسي الرطبة في " حديقة الأمة " فتعرض أحد الاثنين لإبراهيم حلمي وقال له : ما شاء الله جئتنا اليوم بشاعر جديد لم نسمع اسمه فصدمه إبراهيم صدمة عنيفة وقال له : إن كان عندك شعر أحسن من هذا الشعر فهاته ولم يكن صاحبنا العياب شاعراً ولا كاتباً وإنما هو مهذار ثرثار فلما أصبحوا جاءني خير الدين والإخلاص ملء كلامه وقال : انظم لنا قصيدة ثانية في موضوع خيالي واكبت حسادك ... فلما سمعت : واكبت حسادك ... دهشت كل الدهش وأنا لم أكن أعرف أحداً من دمشق حتى يحسدني فقد كنت غائباً في يافا فقلت لخير الدين ومن هم هؤلاء الحساد؟ فلم يشأ أن يذكر لي أسماءهم ولما ألححت عليه في الطلب ذكر لي اسم صاحبنا المهذار .

فارقت خير الدين في الصباح وإني لأتنزّه في المساء في شارع جمال الدين باشا إذ صادفني العيّاب

" وحياني وقال : بارك الله لك في هذه القصيدة وحملني على الإكثار من الشعر وغمرني بالثناء الجميل وكنت أتأمل في اثناء كلامه في نواحي وجهه وأفتش عن ناحية أستقطر منها دم الخجل إذا أنا ذكرته طعنه عليّ قبل يومين فلم أعثر عليها !! فسكت ولم أجبه عن كلامه وعجبت من هذا الخلق الكريم !؟ هذه هي أبغض

ذكرى إلي وأنا كلّما رأيت صاحبنا أُصاب بشيء من الانقباض لا أدري ما هو ؟!

وما هذه الذكرى بذات بال ولكنها لا تخلو من شيء من الدلالة على مقادير أخلاقنا ينشأ فينا الشاعر فننصب له الحبائل ونريد به الغوائل حتى نطفىء من نوره وإذا لم يكن هذا الشاعر من أهل العزم الذين يسخرون من ثرثرة الثرثارين ويهزأون بحسد الحساد عاف الشعر من أول قصيدة يقولها وينشأ الشاعر في ظلال لبنان فيحارون في أساليب تنشيطه حتى يتلألأ نوره في سماء الشعر .

جريدة المداعب

٧ حزيران ١٩٣٠

كل شيء طيب في الدنيا

أبو علي عامل ارتست

– محمود تيمور –

قد أرجع إلى دمشق بعد طائفة من الأيام وفي نفسي آثار شتى من مصر على الرغم من عزلتي فيها إني لم أتعرف إلا إلى قليل من رجال مصر ولكن الذين تعرفت إليهم على قلتهم قد تركوا في نفسي آثاراً بليغة وفي جملة الذين ألّفت بيني وبينهم صحبة آمل أن تكون بعدية الآفاق الأستاذ محمود تيمور بك ويرجع الفضل في هذه الصحبة إلى الأستاذ محمد أمين حسونه فهو الذي قال لي: سأعرفك إلى رجل أجمعوا على أنه مضرب المثل لشباب مصر وهو محمود تيمور وقد كنت أسمع عن المرحوم أحمد باشا تيمور أشياء كثيرة من معالي الأستاذ العلامة محمد كرد علي أيام كان وزير المعارف في سورية حتى أنه لما نعي إليه المرحوم الباشا أخذته الدهشة فبقي يوماً لا يدري كيف يعزي نجليه فطلب إليّ أن أكتب كتاب التعزية ففعلت.

جمع الصديق محمد أمين حسونه بيني وبين الأستاذ محمود تيمور في "غروبي" القديم حيث يجلس في أماسي الخميس فما كدت أدخل (غروبي) حتى دنا مني الأستاذ محمود تيمور فما لبثت أن رأيت عليه آثار الارستقراطية ولكنها ارستقراطية مصقولة الحواشيء مهذبة الأطراف لا تشبه هذه "الارستقراطيات" التي لا تزال سبباً في ثورة الطبقات من الناس طبعت "ارستقراطية" محمود تيمور بطوابع خاصة فلا تكاد تأخذها عينك حتى تضطر إلى إجلالها على الرغم منك ثم إذا جالستها قليلاً رأيتها قد ذابت فلم يبق بينك وبينها حجاب فخذ حينئذ في الانبساط ما شئت فإنك بمحضر الخلق الرقيق والطبع المهذب والقول الكريم أضف إلى هذا كله ما أردت من الصدق.

إني لم أقدم هذا القول عبثاً فلا محمود تيمور من الفتيان الذين يحتاجون إلى شيء من المدح ولا أنا من الذين عرفوا بإرسال الأماديح، وإنما قدمت هذا القول لأبين الصلة بين محمود تيمور وبين نتائج خواطره أي بينه وبين قصصه التي نعمت بمطالعتها في هذه الأيام.

من المؤلفين مَنْ تظهر على مؤلفاته آثار الصلة بينه وبين هذه المؤلفات فلا تكاد ترى شيئاً من التنافر بين فيض عقولهم وبين ما يسمونهه في هذا العصر شخصيتهم فلنضرب مثلاً لذلك إذا رجعنا إلى الجاحظ وجدنا الصلة بين نفسه وبين آثار عقله محكمة الأسباب

فالجاحظ مال إلى الاستقلال في حياته فظهرت آثار هذا الاستقلال على كل مذهب من مذاهبه سواء أكان ذلك في العلم. أم في فلسفة الدين أم في الأدب، فكان مستقلاً في علمه لا يؤمن إلا بما يثبته العقل والحس معاً. وكان مستقلاً في دينه لا يرجع في تفسير أو تأويل إلا إلى ما يوحيه إليه العقل والحس معاً، وكان مستقلاً في أدبه، ففنه إنما هو فن الرجل الذي يخاطب العقل فالاستقلال الذي نزع إليه الجاحظ في حياته قد ظهرت آثاره على علمه وعلى دينه وعلى أدبه فبين مؤلفات الجاحظ وبين شخصيته صلة أكيدة.

والأستاذ محمود تيمور لم يخرج على هذه القاعدة في قصصه فقد مزج نفس خلقه بمؤلفاته، فإذا قرأت هذه المؤلفات وجدت فيها هذه النفس وهذا الخلق.

طلبوا مرة إلى (اناتول فرانس) أن يقص عليهم قصة "رنان" مع راهبة الدير في لبنان فقال أناتول:

"اسمعوا الحديث من فم رنان نفسه. ولست أعني بهذا أنه حسن القصص. ولكنه كان صاحب طريقة خاصة فكان يملأ أحاديثه شواهد ويتأوه تأوه الريتونيين ويبتسم ويدير أباهمه على بطنه ويورم خديه الضخمين في أثناء الحديث والخلاصة كان يطبع أحاديثه بطابع خاص.

فالأستاذ محمود تيمور من القصّاص الذين يطبعون قصصهم بطابع خاص وهذا الطابع هو الذي يبين لك الصلة بين قصصه وخلقه.

عندي من قصصه: أبو علي عامل ارتست والحاج شلبي وحديثي في هذا المقال الوجيز عن عمنا أبي علي أو عن بعض قصص هذا الكتاب.

لقد قرأته في مصر وكنت في أثناء قراءتي إياه أدون بعض ما توحيه إليّ هذه القراءة ثم رجعت إلى ما دونته فإذا أنا بمحضر خواطر شتى لا يأخذ بعضها برقاب بعض فأحببت أن أنقل هذه الخواطر إلى غيري على الوجه الذي خطرت فيه بالبال دون شيء من التنميق فعسى أن يكون فيها من الصدق ما في قصص محمود تيمور.

يعرض عليك الأستاذ محمود تيمور أبطال قصته في معارض ليس فيها شيء من الكلفة لا في جلستهم ولا في مشيتهم ولا في لباسهم ولا في صورتهم.

فعبد السميع لا يتكيء على الآرائك وإنما يجلس على حجر عريض ملقى على مقربة من أحد المخازن المهجورة.

والصبيان يقودون البهائم والرجال يحملون الفؤوس على أكتافهم والنساء خلف حميرهن.

إنك لا تجد في هذه المشية مخالفة من قبل أصحابها للطبيعة.

وعبد السميع كان "يتمنطق على جلبابه الأزرق القصير بحزام من الكتان مشدود على خاصرته شداً زاد في رفع جلبابه عن الحد المألوف".

وعبد السميع طويل القامة عريض الأكتاف قوي العضلات له ملامح ريفية جذابة. إنك لتجد في هذا كله نزعة من القاص إلى الصورة المحسوسة التي تقع عليها عينك لأول وهلة دون شيء من جهد الذهن وإذا أحب أن يذهب بك في صورته من أفق الحس إلى أفق المعنى قرب منك فنه ولم يغل فيه.

"وبغتة أشرق وجه عبد السميع وانفرج فيه عن إبتسامة عريضة ظهرت تحتها أسنانه البيضاء المنظمة".

ففي هذا الكلام إعتدال في التصوير فلا يجمح الخيال بالأستاذ محمود تيمور وإنما خياله مثقف مصقول. فهو لا يشبه أولئك الشعراء الذين إذا رثوا قالوا:

خرجوبه ولكل باك خلقه صعقات موسى يوم دك الطور

والشمس في كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمور

سامح الله أبا الطيب في هذا الغلو، وإذا أُعجبت لشيء فإني أعجب لهذا الأمر كيف لم ترجع الحياة إلى الميت بعد هذه الصعقات!

نعم لم يجمح الخيال بالأستاذ محمود تيمور فإنه مصقول الحواشي مهذب الأطراف وبين هذا الصقل والتهذيب وبين قصصه أو فنه في القصة شيء من النسبة المتينة.

وسواء أكان يعرض علينا صورة مادية كالصور التي أشرت اليها أم صورة معنوية كصورة صابحه "التي كانت طاهرة القلب مخلصة

متوقدة الذهن صريحة قوية في إيمانها شديدة الثقة بنفسها، إنه في مجامع صوره معتدل في خياله مقتصد في تعبيره صادق في تصويره، فالفن الذي يلجأ إليه الأستاذ محمود تيمور في الإعراب عن فكره أو عن عاطفته إنما هو فن مطبوع بطابع الصدق وأسلوبه أسلوب الرجل الصادق فهو أسلوب بسيط لا غلو فيه ولا إغراق يعرض عليك الحياة في حقائقها فلا يقبح محاسنها وقد يحسن مقابحها في بعض الأحيان ولقد غلبت هذه البساطة على فلسفة أبطال قصصه أنفسهم فإن هذه الفلسفة لا أثر لتعب الفكر عليها.

عبد السميع سرق النقود من سيده ولماذا سرق هذه النقود إنه لم يسرقها إلا من أجل "صابحه" فهو يعترف بأن حسن أغا سيده وولي نعمته ولكن سرقته عادلة لأنه فقير معدم ضعيف الحول والقوة ومزاحمه على «صابحه» رجل غني بماله وجاهه.

أفلم تجد أن هذه الفلسفة بسيطة مثل عبد السميع نفسه لا أثر للعقل عليها وإنما الطبيعة تمليها عليه إملاء فيسرق عبد السميع ليتزوج فهو لم يسرق للإسراف في شيء من النعيم والترف فلا يشبه هؤلاء الوزراء الذين ملأوا الدنيا بسرقتهم وإنما سرق ليتزوج أي لقضاء حاجة لا مندوحة له عن قضائها.

لم يقتصر الأستاذ محمود تيمور على عرض قصص متشابهة فقد نوع قصصه ولم يعرض علينا قصة واحدة يلونها بألوان مختلفة فلكل قصة من قصصه مرمى من المرامي لأن كل واحدة منها تمثل

لأذهاننا ناحية من نواحي الحياة على أنه قد يقص عليك قصة الشيخ سويلم ويصف لك جنونه في حب الجنة ذاك الجنون الذي خرج به من الحياة إلى الموت ثم يقص عليك قصة صابحه ويصف لك جنون عبد السميع في حبها ذاك الجنون الذي خرج بصابحه من الحياة إلى الموت ولكن كيف كان الأمر فلكل جنون من هذين النوعين خصائص.

إنك لترى في هذه القصص طابعاً إنسانياً ففي كل عصر من العصور نجد آثاراً للجنون سواء أكان هذا الجنون في حب الجنة أم في حب المال أم في حب صابحه، فليست قصص محمود تيمور بقصص موضعية وإنما هي قصص عالمية فهي بعيدة الآفاق متسعة الأفياء.

لم يقتصر الأستاذ محمود تيمور على وصف نواحي الضعف في البشرية وإنما وصف الداء والدواء معاً في فلسفة "أم زيان" في الحقيقة إلا دواء البشرية في مجامع جنونها في جنوننا في الحب والدين والمال وأشباه هذا كله تصاب أم زيان بما تصاب به فتسألها عن حالها فتقول لك ألف حمد وألف شكر كل شيء طيب في الدنيا.

هذه هي الفلسفة البسيطة وهذه هي الفلسفة العالية أيضاً لأن البساطة يلازمها العلو كل شيء طيب في الدنيا ما أهدأ هذه الفلسفة، ما أطيبها ولعمري لو تصورت حقيقة الحياة لكانت حياة أم زيان صورتها.

وإذا خرجت من قصص الأستاذ محمود تيمور بشيء تنتفع به في هذه الحياة فلست تخرج بأعلى من هذه الفلسفة. كل شيء طيب في الدنيا.

نعم كل شيء طيب في الدنيا وهذا الطيب هو الذي خلع على قصص محمود تيمور رونقه فلا تجد فيها إلا البساطة والسهولة والصرف والإعتدال، فما أقوى الصلة بين خُلق محمود تيمور وبين قصصه، نعم ما أظهر هذا الطيب على كل قصة من قصصه إنه ليستر في مجامعها كل هفوة فتغلب محاسن هذه القصص على هفوات قليلة فتغطيها حتى تقضي عليها فإذا أحببت أن تحاسب عليها صاحبها أخذت أم زيان بمخنقك، وقالت: كل شيء طيب في الدنيا.

مجلة الحديث
نيسان ١٩٣٤

خطاب في حفلة تكريم الدكتور شهبندر

بعد عودته من المنفى ١/حزيران/١٩٣٧

لست أدري هل يستطيع الكلام أن يكرِّم من يخرجونه من دياره في سبيل فكرة الوطن، فيذوق عذاب هذا البعد اثني عشر عاماً، أفلا تجدون أيها السادة أن عذاب الجهاد شديد وإن أشدَّ هذا العذاب الخروج من الأوطان: ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم. فانظروا كيف سوَّى الله عز وجل بين قتل الأنفس والخروج من الديار!.

لقد قتلت نفسك يا سيدي الزعيم اثني عشر عاماً في سبيل وطنك، فما كان الإبعاد أمراً مادياً فيه عذاب الأبدان وحدها ولكنه أمر معنوي فيه عذاب الأرواح.

يُبعد المرءُ عن مائه وأرضه وسمائه، وقد يردُ ماءً أعذب من مائه، وترحِّب به أرض أكرم من أرضه، وتظلله سماء أضحك من سمائه.

ولكن المرء لا يُبعد عن ماءٍ ولا عن أرض ولا عن سماءٍ، وإنما يبعدونه عن هذا الماء الذي أمتزج بدم أضاحيه، وعن هذه الأرض التي اشتملت على عظام شهدائه، وعن هذه السماء التي باركت

لهذه الأضاحي ولهولاء الشهداء، إنهم يبعدونه عن لحمه وعظمه ودمه، عن فكره وشعوره وعاطفته.

هل كان ينقصك يا سيدي الزعيم وأنت في مصر شيء من عذوبة الماء ورقة الهواء وحسن السماء، أما كنت فيها عزيز الجانب، موفور الكرامة، ولكن كان ينقصك فيها شيء أجلُّ من هذه الأمور المادية، قد تكون مصر وطنك الثاني، فيها لغتك وفيها عروبتك وفيها شيء من ماضيك، أكنت تجد فيها هذه الساحة التي قتلت فيها أفكار إخوانك الشهداء وعواطفهم وآمالهم، أكنت تجد فيها هذه الحارات الضيقة الكئيبة التي أخذت تجمع لها ذهنك وتحيي فيها ذكريات إنقضاضك على القوم الظالمين، أكنت تجد فيها هذا المسجد الذي حمل قومك الأقدمون من منبره إلى الدنيا كلها لغة وعروبة وحضارة ودنيا، فقمت تقتل نفسك في سبيل هذه اللغة وهذه العروبة وهذه الحضارة.

لم يبعدوك عن مائك ولا عن أرضك ولا عن سمائك وإنما عن ذكرياتك وعن أفكارك وعن عواطفك، أبعدوك عن دم وطنك وعن لحمه وعن روحه، هذا الوطن الذي زحف إليك وقد شهدت زحفه، وحنَّ إليك وقد رأيت حنينه، وأتاك منقاداً إليك يجرِّر جراحه، ويسلب دموعه، فأتيته منقاداً إليه تمسح هذه الدموع، وتضمد هذه الجراح!.

لم أكن نبياً لما قلت لك: يا سيد الزعماء، الوطن أمانة الله في

عنقك، أعطيته قوة شبابك، فلا تحرمه نضج حكمتك، القلوب معك، والآمال عليك، والزعامة لك، لم أكن نبياً لما قلت هذا القول، ولكني كنت متنبئاً، فإني من دمشق، أعرف أخلاق دمشق، وأعرف شعور دمشق، وأعرف عاطفة دمشق، أعرف هذا السر الإلهي في مائها وترابها، في أرضها وسمائها، كنت أعرف أنها ساعية إليك بدمعها وابتسامها.

ولكن، لماذا زحفت إليك دمشق هذا الزحف! إن دمشق تحب فتفرط في الحب، ثم تبغض فتفرط في البغض، ولكنها تعرف كيف تحب وكيف تبغض، والذين ينظرون إلى مزاجها نظرة عجيلة يظنون أن هذا الافراط إنما هو ضعف في أخلاقها. كلاَّ ! ثم كلاَّ !

لم تضعف دمشق في أخلاقهاّ

إنها تحب فكرة الوطن الصادقة، فتفرط في حبها، فإذا شوَّه محاسن هذه الفكرة شيء من الكذب والغش والتدجيل والأنانية، أفرطت في بغضها، ومن حبها لهذه الفكرة، من حبها لحريتا واستقلالها تجدون في كل بقعةٍ من بقاعها هشيماً من شبابها وحصيداً من رجالها، فكأن نبتها لم ينبت إلاَّ على رفات أضاحيها ولم يروَ إلاَ من دم شهدائها.

ولكن ماذا كانت نتائج هذه الأضاحي وهؤلاء الشهداء!

وزارة سوف تعرفون عاقبتها.

ومجلس لم يسمع قبته إلاَّ كلمة: نوافق، نوافق، ولكن على أي شيء يوافقون!

هـذه نتـائج الأضـاحي والشـهداء، فكـأنهم لا يـأكلون إلاَّ مـن لحـم أضاحيكم، ولا يشربون إلاَّ مـن دمـاء شـهدائكم!

أحبـت دمشـق فكـرة الوطـن وأبلـت في سـبيلها أحسـن البـلاء، ولكنهـا لا تريـد أن تصبَّـح هـذه الفكـرة نزعـة ماديـة تغطـي علـى روحانيتهـا، إنهـا لا تريـد أن تكـون هـذه الفكـرة مجـرَّدة مـن المثـل الأعلـى.

فلما قلـت لـك يـا سـيد الزعمـاء، القلـوب معـك، والآمـال عليـك والزعامة لـك، كنـت صـدى دمشـق، وترجمـان فؤادهـا، لأنـي سمعـت أنين أضاحيهـا، إن دمشـق تلـوب علـى وطنيـة روحانيـة المذهـب، غـير أنانيـة المبدأ، إنهـا تلوب على وطنيـة لها مثل أعلى، فلما زحفـت إليـك دمشق هـذا الزحـف كـانت تعتقـد أنـك تحمـل إليهـا فكـرة الوطـن نقيـة الوجه، صافيـة النفـس، كـانت تعتقـد أنـك جئـت دمشـق لتقـول لهـا: ليسـت غايـة الوطنيـة مـادَّة تافهـة، أو عرضـاً ذاهبـاً، ليـس مـن أجـل حُطـام الدنيـا تفقـأ العيـون وتبـتر الأيـدي وتهشـم الأسـنان وتصـرم الآذان في ميـادين الكفـاح، ليـس مـن أجـل الرياسـات والـوزارات تسفك الدماء في حرية الأمـم واسـتقلال الشـعوب.

جئـت دمشـق لتبلغهـا المثـل الأعلـى في فكـرة الوطـن، عـدت إلى وطنـك لتنعـم بتعـب الجهـاد ومشـقة النضـال لأن النفـوس الكبـيرة راحتهـا في التعـب، فـلا يطيـب لـك عيـش ولا ينعـم لـك بـال حتـى تؤدي فكرة الوطن إلى قومك صادقة، خالصـةً، نزيهـة، مجـرَّدة!

فإذا رأيت التفاف القلوب فاعلم حق العلم أن هذه القلوب تحب إيماناً مثل إيمانك، وعقيدة مثل عقيدتك، إنها تحب أن تسمع رسول الوطنية يقول لابنه: لست مني يا فيصل، ولست منك، إن لم تُشرب قلبك محبة الوطن، لست مني ولست منك، إن لم تملأ قلبك من إيمان أبيك ومن عقيدته، إنها تحب هذه النغمة السماوية، ولهذا رأيت دموعها من أيام تنحدر في حارة مهب الثورات على خدود أبنائها.

لقد بكيت فأبكيت! وهجت فهيَّجت! وصدقت فبلَّغت!

جئت دمشق لتفرغ فيها هذا العلم الذي اقتبسته وهذه التجارب التي جربتها من أربعين سنة حتى يومك هذا.

أيها السادة!

لم تنسلخ هذه الأربعون في لذة من لذات الدنيا، وإنما انسلخت في سبيل فكرة سماوية محفوفة بالمكاره، في مثل أعلى واسع الآفاق، قد تعيش الأمم حيناً من الدهر قليلاً من دون مثل أعلى في الحياة، ولكن التاريخ لم يدلنا على أمم طالت عيشتها من دون هذا المثل الأعلى. فإذا ذهبت فكرة الوطن من قلوبكم ذهب وطنكم كله.

انظروا إلى الأُمم التي ضيعت أوطانها حيناً من الزمن، انظروا إلى ايرلنده أو بولونية أو الاكزاس، إنكم تعلمون ما صارت إليه هذه الأُمم بعد أن غلبوها على سلطانها.

ولكنكم يا سادتي هل تحتاجون إلى مثل هذه الإستشهادات،

هذا وطنكم قريب منكم، أما تعلمون ما نزل بهذا الوطن من يوم بسط الإنتداب عليه ظله حتى هذه الساعة، أما تعلمون ما ينزل غداً بجزء من هذا الوطن الذي سلخوه منكم في فاتحة العهد الحديث، عهد معجزة القرن العشرين!

كنا قبل اليوم نقيم الدنيا ونقعدها من أجل أي أمر من الأمور، وهذه بقعة من أجمل بقاع الشام يسلخونها منَّا فلا يأتي عليها حين من الدهر حتى تذوب في تركيتها، فلا يبقى لنا فيها لغة ولا تقليد ولا دين ولا تاريخ، وقد قرأتم ولا شك آراء العالم الجليل الأستاذ سعيد بك حيدر في جريدة "الأيام" في شأن اسكندرونة وعواقب سلخها، ولكنهم لو يسمعون آراء الصادقين المخلصين أمثال سعيد بك حيدر لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

أهذه فاتحة العهد الحديث، عهد معجزة القرن العشرين، أكانوا يسكتون هذا السكوت لو ضاعت اسكندرونة قبل هذه المعجزة، إننا نراعي مصلحة يوم لنضيع مصلحة دهر، ونراعي مصلحة جماعة لنضيع مصلحة أمة فأين الذين كانوا يقولون: لا مفاوضة قبل الجلاء، بدلاً من أن نخرجهم من ديارنا ونقول لهم لا مفاوضة قبل الجلاء، أخذوا يخرجوننا من ديارنا ويقولون لنا: لا مفاوضة إلاَّ بعد الجلاء!

أيها السادة!

يقول علماء الإجتماع: قد يغلب شعب في معركة من المعارك، وقد يفقد جزءاً من وطنه ثم ينهض بعد هذه المصائب، ولكن إذا

تجرد هذا الشعب من المثل الأعلى فقد تجرَّد من كل شيء وأضاع كل شيء ولا كانت له نهضة على وجه الدهر.

فأين مثلنا الأعلى، أفي دفع الديون، أم في شراء المزارع، أم في التوسع في المال.

سيدي الزعيم!

تخلَّى لك من أيام الدكتور العجلاني عن نيابته، ولست أدري هل سئم هذه النيابة فتخلَّى عنها، فإنه ما أراد أن يصلح أمراً من الأُمور إلاَّ وقفوا في وجهه، ولكن الدكتور العجلاني وشباب دمشق المستنير يهدون إليك شيئاً أثمن من النيابات، فهذه قلوبهم بين يديك، فألقِ عليها ضياء فكرتك الوطنية، إنها تحب التجرد في الوطنية، إنها تحب الفناء في خدمة الوطن للوطن نفسه، لا لشيء من حطام الدنيا، ولا في شيء من الأنانية!

لا تظنوا الدماء تنشف في الروض	*وإن بَلّلته غضاً فغضا*
فاذكروها في كل فجر إذا رفَّ	*وفي ليلكم إذا الليل جُنا*
الأَضاحي على الحمى باسطات	*من وراء الأكفان عيناً وأُذنا*
أعظم في الثرى ولكن فيها	*نفحة الروح تملأ الشعر فنَّا*
همست من جوانب القبر همساً	*رددته القبور لحناً فلحنا*
نحن في الأرض قد فرغنا من	*التهديم فابنوا الديار ركناً فركنا*
اغرسوا فوق عظمنا وطن الخلد	*فإن عاش في اخضراره عشنا*
حسن الظن فيكم، أترانا	*نحسنُ الدهرَ في هداكمُ ظناً*

في منابت الشيح
العرب أعطو جزيرتهم أكثر مما أعطتهم

منذ ثلاثة أشهر قام حضرة شاعر الشام شفيق بك جبري برحلة إلى أوروبا وعاد منها يدون ذكرياته، وقد نشرنا جانباً منها. وفي الشهر الماضي رحل شفيق بك إلى الديار المقدسة وعاد منها وفي دفتر مذكراته أشياء عزم حضرته على نشرها في «القبس» تباعاً، وهي مقالات جمعت بين الأدب الرائع والروح القومية الوثابة.

وإلى القراء اليوم أول هذه السلسلة

والله لا أدري ما أقول، وليست يميني هذه بغموس، فما أخاف أن تغمسني في إثم وما أخاف أن تغمسني في نار، لا أدري ما أقول في رحلة رحلتها إلى العراق وإلى نجد وإلى الحجاز، ولقد كان يخطر على بالي كل شيء؛ فقد كان يخطر على بالي أن أذهب إلى أوربة أو إلى أميركة أو إلى أفريقية أو إلى الهند أو إلى الصين، أما أن اذهب إلى منازل تميم بنجد وهي الدهناء، أما أن أبيت على جوانب الزبيدية وهي بركة بين بغداد ومكة، أما أن أفترش ذراعي في ظلام الليل على مقربة من جبلي طيء وهما أجأ وسلمى، أما أن أترك

أحداً عن يميني، أما أن أرى تهامة وتحرقني شمسها، أما هذا كله فما كان يخطر لي على بال.

شيح وقيصوم وعرفج وسدر وسلم، هذا نبات ما كنت أحسب أن أتمتع من شميمه، والله لا أدري ما أقول، فقد فاجأني السفر مفاجأة، فما تهيأت لبغتته، فلما ضربت في طائفة من الأرضين، ورأت عيني صفات هذه الأرضين في الاتساع والاستواء والبعد والغلظ والصلابة والسهولة والحزونة والارتفاع والانخفاض وغيرها من الصفات، لما جمعت لي جزيرة العرب فأحطت بعض الإحاطة بيسير من رمالها وجبالها وترابها وغبارها ورياحها وآبارها وبرقها ورعدها ومطرها ونباتها وحيوانها، لما ظفرت بهذا كله دهشت كل الدهشة وحرت كل الحيرة، وقلت في نفسي: أين أنا، وما كدت أصدق بعد أن تنزهت في حدائق «لكسمبورغ»و «فرساي» في باريز و «هايدبارك» في لندن، ما كدت أصدق بعد أن شهدت الفصول الأربعة في سويسرة في وقت واحد، فشهدت الشتاء على رؤس جبالها وشهدت الربيع على صفائح هذه الجبال وشهدت الصيف على صفحات مائها، وشهدت الخريف على شجرها، ما كدت أصدق بعد أن ملأت عيني من سهول ايطالية، ما كدت أصدق بعد أن رأيت هذا كله أن أنتقل فجأة من هذه المشاهد الفتانة إلى منابت الشيح والقيصوم والسدر والعرفج والسلم.

والله لا أدري ما أقول، وقد كنت هيأت دفتراً لأدون فيه بعض

الخواطر وأنا أطوي البيدطياً، فلما خرجت من سواد العراق، وانقطعت عن كل حضارة وعن كل عمران، ولم أر ماء ولا شجراً ولا نباتاً ولا حيواناً ولا جناً ولا إنساً لما جمعت لي جزيرة العرب فرأيت وحشة أرضها، ووحشة سمائها ووحشة جبالها، سدت عليَّ مذاهب الكلام فنشفت القريحة وجف التصوير فلم أر في دفتري بعد عودتي إلا خواطر فوضى لا يجمعها منطق ولا يؤلف بينها انسجام فتحت هذا الدفتر فلم أجد فيه إلا أشباه هذه الصور: سيارة في البيداء كالسفينة في البحر ــ ابل نافرة من السيارة أي من الحضارة لأنها لا تريد القيد ـ تراب، وعر، رمل، لا ماء، لا شجر، لا طير، ولا وحش، هذه هي الصور التي رأيتها في دفتري بعد رحلة إلى العراق وإلى نجد وإلى الحجاز، فما عسى هذه الصور أن تبلغ من ذهن القارئ ومن نفسه ومن حسه ومن عاطفته، ما عساني أن أقول في رحلة لم توح إلي إلا الدهشة وإلا الحيرة، أما هذا التعب الذي تعبته فما أحب أن أزعج القارئ بوصفه وإنما أحتفظ بذكراه لأنعم بها في مستقبل الأيام.

ولئن لم أر في دفتري خواطر مدونة، أفلا أجد في ذهني صوراً مخزونة أرجع إليها بعد أن رجع النشاط إلى نفسي فنسيت التعب بعض النسيان على أنها صور غامضة مبهمة قد استلبتها استلاباً، واختطفتها اختطافاً، فلست أعلم مقدار تأثيرها، ولكنها في كل حال عزيزة عليَّ، لأني رأيت في غموضها وابهامها صورة ماضينا

في أدبه وفي أيامه وفي وقائعه، فلولا نجد ولولا الصحراء لما عرفت السر في كثير من شعر جاهليتنا، ولا مدخل المدينة، ومدخل مكة، لولا هذه الجبال السود الرهيبة ما عرفت قدر سيدنا محمد بن عبد الله، فأعظم شيء ألهمتني إياه جزيرة العرب: نشأة شعر الجاهلية ونشأة محمد بن عبد الله، لم أعجب من شيء في هذه الرحلة عجبي من هذين الأمرين الجليلين: كيف تنبت جزيرة العرب شعراً مثل شعرها الجاهلي، وكيف تنبت جبال مكة عبقرية مثل عبقرية محمد بن عبد الله، فالعرب أعطوا جزيرتهم أكثر مما أعطتهم، أعطتهم الشيح والقيصوم والسدر والسلم والعرفج والرند والعرار فجعلوا من هذا النبات حدائق في شعرهم تكاد تنسيني حدائق «لكسمبورغ» و «فرساي» و «هايدبارك» وجبال مكة أعطت محمد بن عبد الله ظلاماً وخشونة، فجعل من الظلام نوراً، ومن الخشونة رقة.

هذا أبلغ ما رأيته في جزيرة العرب وهذا أبلغ ما عرفه البشر في تاريخهم، فكيف نشأ هذا الأدب في الجزيرة، وكيف نشأ سيدنا محمد بن عبد الله في جبال مكة، اللهم إنها لآية من آياتك الباهرات!

القبس ١٩٤٦

فتى الهاشميين في دمشق

غداً يمر بدمشق فتى بني هاشم صاحب الجلالة فيصل الثاني ملك العراق، وهل يجري على الألسن لفظ بني هاشم دون أن يثير هذا اللفظ في حواشي قلوبنا الفكرة الرفيعة التي عاش الهاشميون في سبيلها، والعذاب الشديد الذي كابدوه من أجلها.

وإذا كان المقام لا يتسع للإفاضة في الكلام على فضل بني هاشم في القديم والحديث، فلا أقل من أن نذكر هذا البيان الذي ألهمهم الله تعالى إياه حتى حملوا إلى خلقه الكتاب الذي هذب أخلاق هذا الخلق، وروض طبائعهم وجمع شملهم فكان لهم في حروبهم ومغازيهم دوي بهذا الكتاب كدوي النحل ففتحوا به الدنيا ونشروا فيها شعوراً لا عهد للناس به، وعاطفة لم يعرفوا نظيرها وفكراً ما تعودوا أن يذوقوا مثل محاسنه فكان للعرب بفضل هذا الشعور وهذه العاطفة وهذا الفكر سلطان في الأرض لم تدرك الأمم أفخم منه شأناً فعاشوا بهذا السلطان العيشة الراضية التي لم تعشها أمة قبلهم.

ومن المؤلم أن بني هاشم لم ينعموا بهذا السلطان الذي أنشاؤه للعرب فقد كثر تشتيتهم وتشريدهم وتذبيحهم حتى رويت

الأرض من دمائهم وشبعت من عظامهم، فكما علموا الناس في بدء أمرهم تهذيب الأخلاق وترويض الطبائع، فقد علموهم ما نسميه التضحية في مصطلح لغة هذا العصر فما عرف التاريخ أكرم منهم تضحية وأشد إخلاصاً للفكرة التي اختمرت في عقولهم، فكأن الله تعالى بعثهم إلى خلقه ليسعد هذا الخلق بشقاوتهم وليفرحوا بحزنهم وليضحكوا ببكائهم، ولقد احتملوا في هذه الشقاوة وهذا الحزن وهذا البكاء مالا يستطيع إحتماله غيرهم، فلم تمنعهم الشدائد التي تمرسوا بها عن فتنة الإنشاء وزينة الحضارة وروعة العمران.

وكما كان بنو هاشم في الماضي عنوان التضحية والعذاب فكذلك هم في الحاضر، فلم يتركوا التضحية ولا تركهم العذاب، وإذا كان من أخلاقنا أن ننسى الإحسان والإساءة معاً فعسى أن لا ننسى هذا الإحسان الذي أحسنه إلينا معاشر العرب جبار بني هاشم الحسين بن علي نضر الله رفاته، فقد كان ينعم بملك آبائه وأجداده، كان ينعم بهذه الأرض التي انبلج من أفقها نور الدنيا، فلم يشأ أن ينفرد بنعيمه، فقد أحب أن يكون للعرب كلهم نصيب من هذا النعيم فدعا إلى سيادة العرب ووحدة العرب في الحاضر كما دعا إليهما سيد قريش في الماضي، ولقي في سبيل هذه الدعوة مالم يلقه ملك قبله وحسبه أنه أضاع ملكه ووطنه في سبيل بلاد العرب، فلسطينها وشامها وعراقها، ورجع إلى ربه قبل أن يرى

بعينه نتائج دعوته، وعلى هذا الوجه كان تاريخ بني هاشم سلسلة من التضحية والعذاب متصلة الحلقات من أول دهرهم إلى يومنا هذا.

ولما قام بالأمر من بعده ابنه صاحب الجلالة فيصل الأول لم يشأ أن ينحرف عن خطة والده، ولئن كان حظ الشام من تاجه قليلاً فلقد كان العراق أوفر حظاً من هذا التاج، فقد لقي في العراق قوماً طبعوا على الرجولة والمروءة فنفخ فيهم من روحه الهاشمية الطاهرة فأعطاهم قلبه وعقله وفكره، وأعطوه طاعتهم فاجتمعت الطاعة والمحبة، فكان من اجتماعهما ما كان من سيادة العراق وحرية العراق وكرامة العراق!

ولم يصرف العراق قلب فيصل الأول عن التفكير في الشام والولع بأرضه وسمائه وحدائقه، والذين تشرفوا بزيارته في قصره في بغداد قدر لهم أن يلمسوا بأيديهم أثر هذا الولع وأن يسمعوا بآذانهم صداه وأن يشعروا بقلوبهم بمداه، فما كان يذكر اسم الشام لصاحب الجلالة فيصل الأول وظله ممدود على العراق إلا فاضت دموع عينيه واضطربت جوانح قلبه واختلجت خواطر باله، فكان يسأل زواره أهل الشام عن كل حركة من حركات ديارهم وعن كل سكنة من سكناتها، كان يطرب لذكر الشام الطرب الذي يملك عليه عقله ولبه، وليس بغريب أن يعنى بنوهاشم هذه العناية الكبرى بالشام فقد أحبوا هذه الديار على قدر ما أحبتهم،

وعطفوا عليها بحسب ما عطفت عليهم وسألوا عنها بمقدار ما سألت عنهم.

فإذا هبت غداً دمشق الشام لاستقبال فتى بني هاشم صاحب الجلالة فيصل الثاني ملك العراق فإنما تهب هبتها لتعرب لبني هاشم عن حبها إياهم وشدة صلتها بهم فإن الفتى الهاشمي الذي تنعم دمشق برؤيته يحمل في جوانب نفسه النضرة فكرتهم الرفيعة التي اختمرت في قلوبهم وعقولهم ويمثل ما لقوه في ماضيهم وحاضرهم من العذاب في سبيل العرب عامة وديار الشام خاصة.

لئن لم يكتب لجبار بني هاشم الحسين بن علي أن يجني ثمر الفكرة التي أضاع ملكه ووطنه في سبيلها وخرج من دياره الآمنة المطمئنة من أجلها؛ فعسى أن يرى أولاده وأحفاده الكرام نتائج الغرس الذي غرسه وأبلغ هذه النتائج وحدة بلاد العرب فلا تتم سيادة العرب من دون هذه الوحدة .

بلودان

٢٧ تموز ١٩٤٧